الصباح الإسلامية
09
العدد 1691 - السنة السادسة
الإثنين 16 ذي الحجة 1434 - الموافق 21 اكتوبر 2013
Monday 21 October 2013 - No.1691 - 6th Year

جاء ذكرهن والأمر بتوقيرهن في القرآن والسنة النبوية

أمهات المؤمنين .. صفات وخصائص ربانية

كثيرةٌ هي الخصائص التي اختص الله بها نبيّه محمدا – صلى الله عليه وسلم – على غيره من البشر، إظهارا لقدره ومكانته ، وإعلاءً لمرتبته وشانه ، ومنها خصوصية كثرة زوجاته - صلى الله عليه وسلم - التي أثيرت حولها الشبهات من أعداء الإسلام والمنافقين قديما وحديثا ..

فمن خصائص النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه أبيح له الزواج بأكثر من أربع ، قال الشافعي : « دلت سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله أن يجمع بين أكثر من أربع من النسوة .. وقال ابن كثير : « وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء » .. فهذا الحكم من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - التي انفرد به دون غيره من الأمة ، وذلك أنه - صلى الله عليه وسلم - معصوم من الجور الذي قد يقع فيه غيره ، إضافة لما في زواجه بأكثر من أربع من تحقيق لأهداف وحكم هامة ..

ويطلق على زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - أمهات المؤمنين ، تكريما لشانهن وإعلاء لقدرهن ، وقد شرفهن الله – تعالى – بذلك فقال : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾«الأحزاب: من الآية6».. وقد بلغت زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - اللاتي دخل بهن إحدى عشرة ، كما ذكر ابن حجر في فتح الباري ، وابن القيم في زاد المعاد ، وهن كالآتي :

خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها

تزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهي أول امرأة آمنت من هذه الأمة ، وبقيت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أن أكرمه الله برسالته ، فآمنت به ونصرته ، فكانت له وزير صدق ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ، ولأم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - خصائص كثيرة اختصت بها ، منها : أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يتزوج غيرها ، وأن أولاده جميعا كلهم منها إلا إبراهيم - عليه السلام - ، وهم القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ..

ومن عظيم خصائصها أن الله - عز وجل - بعث إليها السلام مع جبريل - عليه السلام - ، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « أتى جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة أتتك بإناء فيه طعام ، أو إناء فيه شراب ، فإذا هي أتتك ، فاقرأ عليها من ربها السلام ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب «لؤلؤ مجوف» ، لا صخب فيه ولا نصب »«البخاري».

سودة بنت زمعة - رضي الله عنها

هاجر زوجها السكران بن عمرو إلى الحبشة فتنصر ومات بها كافرا ، فزوجه بها والدها زمعة بن قيس .. ومن خصائصها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما أراد طلاقها آثرت عائشة - رضي الله عنها - بيومها ووهبته لها ، حبا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإيثارا لبقائها معه فأمسكها ، فكان يقسم لنسائه ولا يقسم لها ، وهي راضية بذلك ، مؤثرة لرضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنها .

عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنهما

تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين ، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين ، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة ، وتوفيت بالمدينة ، ودفنت بالبقيع ..

ومن خصائصها أنها كانت أحب أزواج النبي إليه ، فقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أي الناس أحب إليك ؟ ، قال: عائشة ، قيل : فمن الرجال ؟ ، قال : أبوها »«البخاري» ..

ولم يتزوج النبي - صلى الله عليه وسلم - بكراً غيرها ، وكان الوحي ينزل عليه - صلى الله عليه وسلم - وهو في لحافها دون غيرها ، ولما أنزل إليه آية التخيير : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾«الأحزاب:28» ، بدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - بها فخيرها فقال : « ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستامري أبويك ، فقالت : أفي هذا أستامر أبوي؟ ، فإني أريد الله ورسوله »«البخاري» ، فاقتدى بها بقية أزواجه - صلى الله عليه وسلم - وقلن كما قالت ..

ومن خصائصها أن الله برأها مما رماها به أهل الإفك ، وانزل في براءتها وحيا يتلى إلى يوم القيامة .. وقد توفي النبي - صلى الله عليه وسلم - في بيتها ، وعلى صدرها ، ودفن في حجرتها .. وكان الأكابر من الصحابة - رضي الله عنهم - إذا أشكل عليهم أمر من الدين استفتوها ، فيجدون علمه عندها ..

حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكانت قبله عند خنيس بن حذافة وكان من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشهد بدرا وأحدا ، وأصيب في أحد بجراح مات منها ، فتزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم ..

ومن خصائصها - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - طلقها ، فاتاه جبريل فقال : « إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك في الجنة »«الطبراني» ..

أم حبيبة - رضي الله عنها

هي رملة بنت صخر بن حرب ، هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة فتنصر بها ، فتزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي بأرض الحبشة ، وأصدقها عنه النجاشي اربعمائة دينار ، وبعث عمرو بن امية الضمري إلى النجاشي يخطبها ، وولى تزويجها عثمان بن عفان - رضي الله عنه ..

وهي التي أكرمت فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجلس عليه أبوها قبل إسلامه وقالت : إنك مشرك ، ومنعته من الجلوس عليه ..

أم سلمة - رضي الله عنها

هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة ، كانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد ، وكانت – رضي الله عنها – من النساء العاقلات الناضجات ، يشهد لهذا ما حدث يوم الحديبية..

قال الإمام ابن حجر : « وإشارتها على النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية تدل على وفور عقلها وصواب رأيها »..

وقد أخذت أم سلمة حظاً وافراً من أنوار النبوّة وعلومها ، حتى غدت ممن يُشار إليها بالبنان فقها وعلما ، وكانت آخر أمهات المؤمنين موتا ..

زينب بنت جحش - رضي الله عنها

هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة وطلقها ، فزوجها الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - من فوق سبع سماوات ، وأنزل قوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾«الأحزاب: من الآية37»..

وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتقول : « زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماواته »«البخاري» ، وتوفيت بالمدينة سنة عشرين ودفنت بالبقيع ..

زينب بنت خزيمة - رضي الله عنها

هي زينب بنت خزيمة الهلالية ، وكانت تحت عبد الله بن جحش - رضي الله عنه - الذي شهد بدرا وقتل يوم أحد .. تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ستة ثلاث من الهجرة ، وكانت تسمى أم المساكين لكثرة إطعامها المساكين ، وعاشت ثمانية أشهر مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم توفيت ، وقد صلى عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودفنها بالبقيع .

جويرية بنت الحارث - رضي الله عنها

تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جويرية بنت الحارث من بني المصطلق سنة ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ستة وخمسين ، وهي التي أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق ، وقالوا : أصهار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكان ذلك من بركتها على قومها - رضي الله عنها ..

صفية بنت حيي - رضي الله عنها

تزوج النبي - صلى الله عليه وسلم - صفية بنت حيي سنة سبع بعد غزوة خيبر حيث سبيت فيها ، وكانت قبله تحت كنانة بن أبي الحقيق ، توفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل سنة خمسين ، ومن خصائصها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أعتقها وجعل عتقها صداقها ، قال أنس - رضي الله عنه - : « أمهرها نفسها »«البخاري» ..

ميمونة بنت الحارث - رضي الله عنها

أشار العباس - رضي الله عنه - على النبي - صلى الله عليه وسلم - بزواجها ، فتزوجها مواساة لفقد زوجها ، واعترافا بفضلها ، وتحبيبا لقومها في الإسلام ، وقد تزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - وبنى بها بسَرِف «مكان قرب مكة» ، وماتت بسَرِف ، وهي آخر من تزوج من أمهات المؤمنين ، وهي خالة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما ..

وكانت - رضي الله عنها - مثلاً عالياً للصلاح والتقوى ، حتى شهدت لها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بقولها : « .. أما أنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم » .

وقد روت عدداً من الأحاديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، كان منها صفة غسله - صلى الله عليه وسلم ..

هؤلاء جملة من دخل بهن من النساء ، وهن نساؤه - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا والآخرة ، وقد عاشت زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - أمهات المؤمنين في غرفهن الصغيرة بجوار المسجد النبوي ، يستمعن لأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - ويشتركن في بيان تعاليم الإسلام وأحكامه - خاصة في شئون المرأة - ، ثم لهن حياتهن الخاصة مع النبي - صلى الله عليه وسلم - الحافلة بالعبادة والعلم ، المليئة بالدروس والعبر ، الدافقة بالخير والعطاء ..

وقد توفيت اثنتان منهن في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهما خديجة وزينب بنت خزيمة – رضي الله عنهما – ، وتوفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن تسع منهن ، ودُفِنَ جميعا في البقيع بالمدينة المنورة ، ما عدا خديجة - رضي الله عنها - فدفنت في الحجون بمكة ، وميمونة بنت الحارث – رضي الله عنها – دفنت في سرف قريبا من مكة .

لقد عاش النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية ، عفيف النفس ، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله ، كما أنه تزوج من خديجة - رضي الله عنها - ولها ما يقارب ضعف عمره ، حتى تجاوز مرحلة الشباب ، وقد ظل هذا الزواج قائما حتى توفيت عن خمسة وستين عاما ، وقد قرب النبي - صلى الله عليه وسلم - من الخمسين من عمره ، دون أن يفكر خلالها بالزواج بأي امرأة أخرى ، ومابين العشرين والخمسين من عُمُر الإنسان هو الزمن الذي تقوى فيه الدوافع لذلك ، لكن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يفكر في أن يضم إليها - رضي الله عنها - مثلها من النساء زوجة أو أمَة ، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه ، وهو أمر طبيعي في هذه البيئة .

ومن ثم فكثرة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن بهدف التمتع وإشباع الشهوة ، وإن كان ذلك أمرا فطريا سائغا لا يعاب الإنسان به ، وقد كان ذلك سائدا بين العرب آنذاك ، وقد عَدّد الأنبياء قبله - صلى الله عليه وسلم - ، ومع ذلك فإن هدف النبي - صلى الله عليه وسلم - من زواجه كان أسمى من ذلك وأعلى ..

ففي زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - كثير من الحكم التشريعية والإنسانية والتعليمية ، إضافة إلى ما يتعلق بمصلحة الدعوة وتبليغ الرسالة ..

فقد حرص في بعضها - صلى الله عليه وسلم - على توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل ، كما حدث عندما تزوج بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق ، الذي كان من آثاره إسلام جميع قبيلتها ، وكزواجه من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وصفية بنت حيي بن أخطب ..

وهدف في بعضها الآخر تكريم أرامل الشهداء الذين ماتوا في الحبشة ، أو استشهدوا من أجل الدعوة في سبيل الله ، وتركوا أرامل لا يقدرون على تحمل أثقال الحياة وأعبائها الجمة ، مثل أم سلمة - وزينب بنت خزيمة ، وسودة بنت زمعة ..

وكان في بعضها الآخر زواجا تشريعيا كزواجه - صلى الله عليه وسلم - من زينب بنت جحش وذلك لهدم نظام التبني الذي كان موجودا عند العرب .. ومنها توثيق أواصر الترابط بينه وبين صاحبيه الجليلين أبي بكر وعمر ، وتكريمهما بشرف المصاهرة به ، وذلك ظاهر في زواجه - صلى الله عليه وسلم - بعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر - رضي الله عنهم ..

وثمة أمر آخر هام وهو أن الإسلام - الذي هو خاتم الأديان - بحاجة إلى من يبلغ أحكامه الشرعية الخاصة بالنساء وهي كثيرة ، وزوجة واحدة لا تستطيع القيام بهذا العبء وحدها ، فالأمر أكبر من ذلك بكثير ، وقد ذكر رواة الستة أن نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - روين أكثر من ثلاثة آلاف حديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ومن ثم فقد ساهمت أمهات المؤمنين خاصة - عائشة وأم سلمة - مساهمة فعالة في نقل السنة النبوية ، - وهي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله - إلى الأمة الإسلامية ..

وقد ذكر الإمام ابن حجر في فتح الباري حكما كثيرة للعلماء من استكثاره - صلى الله عليه وسلم - من الزوجات ، أحدها : أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة فينتفي عنه ما يظن به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك .. ثانيها : لتتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم .. ثالثها : الزيادة في تآلفهم لذلك .. رابعها : لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه .. خامسها : نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال ، لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله .. سادسها : الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة ، فقد تزوج أم حبيبة وأبوها بعاديه ، وصفية بعد قتل أبيها وعمها وزوجها ، فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنفرن منه ، بل الذي وقع أنه كان أحب إليهن من جميع أهلهن .. سابعها : تحصينهن والقيام بحقوقهن ..

ومن ثم فإن لكل من زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمهات المؤمنين حكمة وسبب ، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ورفعة شانه وكمال أخلاقه ..

ميزان الرجال في السنة النبوية

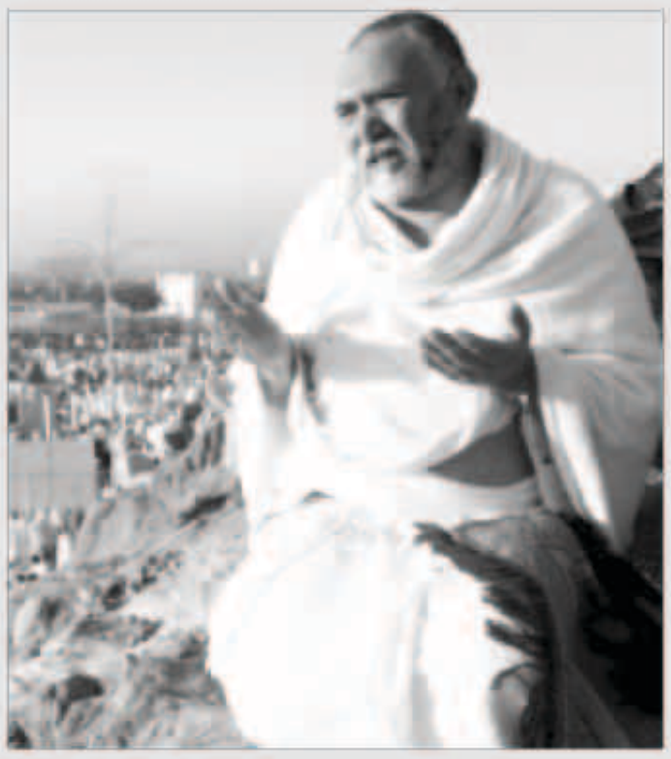

ميزان النبي - صلى الله عليه وسلم - للرجال لا ينظر إلى الفوارق في اللون والجنس والنسب، ولا يرجع إلى الجاه والمال والمنصب، فالناس كلهم لآدم، وآدم خلق من تراب .. وإنما التفاضل فيه بتقوى الله والعمل الصالح، كما قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾« الحجرات: 13» .

قال ابن تيمية: « ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يَمْدَحُ فيها أحدًا بنسبه، ولا يذمُّ أحدًا بنسبه، وإنما يمدحُ الإيمان والتقوى، ويذمّ بالكفر والفسوق والعصيان » .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: « خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسط أيام التشريق في حجة الوداع، فقال: أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟، قالوا : بلى يا رسول الله، قال : فليُبلغ الشاهدُ الغائبَ » رواه أحمد .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم .

ومواقف النبي - صلى الله عليه وسلم - وأحاديثه التي تبين أن الميزان الصحيح والدقيق للرجال لا يكون بالصور والمناظر، ولكن بالتقوى والعمل الصالح كثيرة، منها :

عن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - قال: « مرّ رجل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: لرجل عنده جالس ما رأيك في هذا؟، فقال رجل من إشراف الناس: هذا – والله حريّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفّع، قال: فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم مرّ رجل، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريّ إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » رواه البخاري .

وفي رواية للحديث أن اسم هذا الفقير جُعيل، وأن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: « فجُعيل خير من ملئ الأرض مثل هذا »، وجعيل بن سراقة الضمري من فقراء المسلمين، وكان رجلا صالحا دميما قبيحا، أسلم قديما، وشهد مع رسول الله أحدا .

قال ابن حجر: « وفي الحديث بيان فضل جُعيل المذكور، وأن السيادة بمجرد الدنيا لا أثر لها، وإنما الاعتبار في ذلك بالآخرة كما تقدم، أن العيش عيش الآخرة، وأن الذي يفوته الحظ من الدنيا، يعاض عنه بحسنة الآخرة .. تبين من سياق طرق القصة أن جهة تفضيله إنما هي لفضله بالتقوى » .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه كان يجتني سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: « مم تضحكون؟!، قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحُد » رواه أحمد .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: « قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم : من أكرم الناس ؟، قال: أكرمهم أتقاهم، قالوا : يا نبي الله ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسالونني؟، قالوا: نعم، قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، إذا فقهوا » رواه البخاري .

قال النووي: « قال القاضي عياض: وقد تضمن الحديث في الأجوبة الثلاثة أن الكرم كله عمومه وخصوصه ومجمله ومبانيه إنما هو بالدين .. » .

وقد تكرر سؤال الصحابة للنبي – صلى الله عليه وسلم – عن خير الناس وأفضلهم في مواطن كثيرة، والنبي – صلى الله عليه وسلم – في جوابه يؤكد على خيرية العبادة والعمل الصالح، فحين جاءه أعرابي فقال: أي الناس خير؟ فأجابه – صلى الله عليه وسلم –: « رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » رواه البخاري .

ومرة أخرى سأله الصحابة: أي الناس خير؟، فقال - صلى الله عليه وسلم -: « من طال عمره وحسن عمله » رواه الترمذي . وقال - صلى الله عليه وسلم -: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي » رواه الترمذي.

ونحن في زمان انقلبت فيه الموازين عند البعض فصاروا يفاضلون بين الرجال بالمظهر والمال، والحسب والجاه، دون النظر إلى الدين والتقوى والعمل الصالح، وهذا ولا شك من الخلل البين والانحراف عن ميزان الرجال الصحيح في السنة النبوية: « ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى » .